

الفصل الرابع

ملاحظات في تعريف الثقافة (١)

وكما تأثر إليوت في حملته على الرومانسية بأراء الناقد الفيلسوف ت . إ . هيوم كذلك تأثر أيضاً في تعرضه لمضمون الثقافة بأراء الشاعر والناقد الإنجليزي ماثيو أرنولد (١٨٢٢ - ١٨٨٨) (١) . فلقد ذهب أرنولد في تعريفه للثقافة في مقدمة كتابه المشهور عن « الثقافة والفوضى » (٢) إلى القول بأنها :
« متابعة الكمال التام عن طريق الرغبة في معرفة أحسن القول والفكر في العالم فيما يختص بالأمور التي تهمننا » (٣) .

أما الانحراف عن هذه المتابعة فغالباً ما يؤدي إلى الفوضى العقلية أو الخلقية التي تودي بالأفراد والجماعات إلى التهلكة . لكن أرنولد لم يوجه اهتمامه للجماعات بقدر عنايته بالأفراد ، فلقد كان رائده هو تحقيق صحة الفرد الذهنية والروحية أى كياسة الفكر والاستجابة لوازع الضمير والتزعات الخلقية عند الإنسان . وهذا هو ما عارضه فيه إليوت ، إذ أنه يرى أن فكرة أرنولد عن الثقافة ناقصة مبتورة ، ذلك أنه لم يطبق الكياسة الفردية على الجماعات المختلفة ، بل اكتفى بتتبع مراحل الكمال عند المرء دون أن يتعرض للمثل العليا التي تربط الجماعات بعضها ببعض .

إن إشارات أرنولد لبعض الجماعات التي اطلق عليها اسمى البرابرة والحضريين

Notes Towards the Definition of Culture.

Matthew Arnold.

Culture and Anarchy.

"A pursuit of our total perfection by means of getting to know, on all the matters which most concern us, the best which has been thought and said in the world."

Matthew Arnold, Preface to *Culture and Anarchy*. London 1923, p.x.

إنما هي إشارات عابرة تخدم قضيته الفردية التي كرس مجهوداته للذود عنها ، وهذا جاء مفهوم « الثقافة » عنده ضعيفاً . ويرجح إليوت السبب في ذلك إلى خلو منهاجه من التطبيقات الاجتماعية التي تشد من أزره . فلقد أضاف إليوت إلى هذا المفهوم نواحي عديدة منها التأدب والدمائة ورقة الإحساس والمشاعر ؛ ثم التعليم الصحيح والإلمام الشامل بالتراث الماضي وحكمة القدامى . كما يشمل هذا المفهوم أيضاً على اتساع الأفق العقلي وشموله للفكر الفلسفي والقضايا الفكرية المجردة والمقدرة على استيعابها والتعبير عنها . كما لعبت أيضاً الفنون المختلفة دوراً جوهرياً في نشر الثقافة فهي عماد الحضارات وركن أساسي في نشأتها ورفعها .

ويرى إليوت أن هذه النواحي المختلفة تكون سلسلة متصلة الحلقات في المضمون الكلي « للثقافة » . كما أن نقص إحداها لا بد وأن يؤثر على بقية هذه الاتجاهات . فالمقدرة العقلية التي لا تستند إلى شيء من التهذيب تؤدي غالباً إلى الغرور والادعاء . ويستخلص إليوت من هذه المقدمات المنطقية قوله بأننا « إذا لم نجد الثقافة في أحد فروع هذا التكامل ، فعلينا أولاً ألا نتوقع شخصاً بمفرده قد حقق فيها برمجتها ؛ ونستنتج تبعاً لذلك أن الثقافة الكاملة بالنسبة للفرد قد أضحت خرافة ؛ وعلينا إذن أن نبحث عن الثقافة خارج نطاق الفرد أو الجماعة التي تتكون من الأفراد . في محيط أكثر رحابة . لنجدها في نهاية الشوط في نموذج المجتمع بأسره (١) » .

وعلى ذلك فالثقافة الفردية لا يمكن عزلها عن الثقافة الجماعية ، وهذه بدورها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع المتكامل . فالجماعات المثقفة تعمل دائماً في نسق

(١) "It we do not find culture in any of these perfections alone, so we must not expect any one person to be accomplished in all of them; we shall come to infer that the wholly cultured individual is a phantom; and we shall look for culture, not in any individual or in any one group of individuals, but more and more widely; and we are driven in the end to find it in the pattern of the society as a whole".

T.S. Eliot, *Notes Towards the Definition of Culture*. London 1948, p. 23.

كلى متجانس داخل إطار المجتمع الكبير ، فحياة هذه الجماعات قائمة على مشاركتها في وحدة الغايات والأهداف ، كما أنها تستمد كيانها من تبادل الرأى ووجهات النظر .

فلقد كانت الثقافة القبلية عامة ، وبتقدم المدنية انتقلت الثقافة تدريجياً من التعميم إلى التخصص ، مما أدى إلى ظهور فروع مختلفة في الديانات والفنون والعلوم والآداب . ومن ثم تبلورت المدنية وفصلت الطبقات بعضها عن بعض ، وتمخض هذا الاتجاه عن سلسلة طويلة من التنازع والتناحر . وهذا التنازع الطبقي قد انعكس على التنافر العقلى حتى بلغ الصراع أشده بين وجهات المعارف المختلفة . وهذا الاحتكاك مرده إلى قيام بعض العلوم على أكتاف غيرها ورغبة البعض الآخر فى السيطرة على سواها :

إلا أن هذا الاحتكاك فى نظر أليوت قد ولد لنا مستويات شتى من « الثقافة » وترك وراءه وجهات متعددة . ولقد لعبت المبادئ الوراثية والأسس البيئية أدواراً خطيرة فى تشكيل هذه المستويات ، فانعكست على ثقافات المجتمعات ، وتأثرت بها تأثراً ملحوظاً على مر الأزمنة ، فتواترت بعض القيم التى ذهبت أدراج الرياح ، وحلت مكانها قيم جديدة فيها استجابة لتقدم الفكر ولتعقيد سبل الحياة كلما تطورت المدينة وخطت خطوات وثابة نحو التقدم .

على أن ذلك لا ينسبنا جانب الخطورة إذ أن التهادى فى التخصص قد يؤدى أحياناً إلى فصم عرى « الثقافة » . وهذا التفكك يعد ضربة قاضية على المجتمع بأكمله ، فمن المتعذر صحوته بعد هذه النكبة التى حلت به ، إذ يعتبرها إليوت أشد النكبات وأخطرها بلية . فالانحلال الثقافى^(١) منتج من التعارض الفكرى ، والتكامل الأيديولوجى أو المذهبى ، ومن التشنج الذهنى ؛ والانفصال الطبقي داخل المجتمع ، مما أوجد هوة سحيقة بين الأشكال والمضامين . ويشير

إليوت إلى هذا النوع من الانحلال في المجتمع الغربي بقوله :

« لقد نحا الفكر الديني إلى العزلة التامة البعيدة عن الخبرة الدينية ، والفلسفة قد بعدت عن الفن ، ونمت هذه العزلة بواسطة جماعات لا تتصل الواحدة منها بالأخرى . فتبلد الإحساس الفني بعد أن عاش في منأى عن الإحساس الديني ، ولقى الأخير نفس المصير بعد انفصاله عن الإحساس الفني » (١) .

هنا يكمن الخطر الذي يؤثر في المجتمع كوحدة كلية . وهذا الانحلال لا ينعكس على الأفراد الذين يكونون هذه الجماعات فحسب ، بل إن خطره يمتد إلى غيرها من المجتمعات التي عاصرتها والتي تلتها . فلم تكن « الثقافة » يوماً ما وفقاً على جيل معين أو عصر بذاته ، بل إنها تشمل العالم بأسره والبشرية جمعاء .

فلقد توارثت الأجيال ثقافات متعددة ، ولم تكن في مجموعها مجرد خبرات متناثرة ، بل إنها تكون أسلوباً في الحياة ، ينتقل من جيل إلى جيل ومن عصر لآخر . ويضع إليوت على عاتق جماعة المثقفين مهمة نقل التراث الماضي وتنوير أذهان أهل الحاضر . ولا تقتصر مهمتهم على بعث التراث المحلي بل الاتصال أيضاً بالثقافات الأخرى التي أثرت وما زالت تؤثر في ركب الحضارة . وبهذا تتفاعل الثقافات التي لا تقتصر على لون معين ، ولا تخضع لإطار محلي خاص .

ولا يعنى إليوت من وراء ذلك خلق ثقافة عالمية قائمة على محاولة التوفيق بين الثقافات المختلفة . فالثقافة العالمية في نظره هي مجموعة الثقافات المحلية التي تتصل بعضها ببعض والتي تستفيد من الثقافات الأخرى بقدر ما نفيد غيرها أيضاً . فهو لا يعنى بالثقافة العالمية محو الخصائص المحلية ، فليس هذا من شأن « الثقافة »

(١) "Religious thought and practice, philosophy and art, all tend to become isolated areas cultivated by groups in no communication with each other. The artistic sensibility is impoverished by its divorce from the religious sensibility, the religious by its separation from the artistic."

في شيء . إن الاحتفاظ بالمؤثرات المحلية فيه خصوصية ونماء للثقافة العالمية ، إذ تتبلور الثقافة العالمية عن طريق احتكاك هذه المؤثرات بعضها ببعض ، وفي اختلافاتها إثراء للثقافة وتشعب لمقوماتها .

ومع أن التعليم يحتل مكان الصدارة في هذه المقومات إلا أن هناك عناصر أخرى لها قيمتها أيضاً في تشييد صرح « الثقافة » وهي العوامل المنزلية والبيئية والصحافة ووسائل النشر والإعلام وغيرها من الأمور التي تتصل بحياة الناس وتشكل أفكارهم ، وطرق معيشتهم ، وأعمالهم التي يقومون بها ، ووسائل تسليتهم وسلوكهم . أو بمعنى آخر كل ما يتصل بحياتهم الخاصة والعامة .